

ترجمة

بروس بيغو الفينومينولوجيا: تأملات المنهج¹

ترجمة: أ. مراد قواسمي² جامعة مستغانم

تقدمة

"التوجه نحو الأشياء نفسها" Retour aux choses elles mêmes. إنه الشعار الشهير لهوسرل Husserl (1938/1859) المتواجد في مقدمة مؤلفة الضخم "أبحاث منطقية" Les recherches logiques (1901)³ إذ يتضمن تحديدا، مجمل فلسفته، و لذلك فإن الشرح المفصل لمعنى هذا الشعار يغدو ضروريا، لأن دلالة الفينومينولوجيا تخضع له بصورة مباشرة. فما الذي نفهمه إذا من "التوجه إلى الأشياء نفسها"؟ ما هذه الأشياء نفسها؟ هل هي الموضوعات التي تمنحها لنا إدراكاتنا المعتادة؟ أم هي تلك الأشياء المجردة لحظة إدراكنا المعتاد، وبالتالي المفهومة في جوهرها الخالص؟ لربما يكون الوقت مبكرا عن تقرير ذلك، إذ أننا نرى من المهمات الكبرى لفينومينولوجيا هوسرل ذلك النفاذ إلى هذه "الأشياء نفسها" بحيث علمها، بطريقة ما، أن تقود الفكر الفلسفي.

مصطلح الشيء الذي يختاره هوسرل هاهنا (Sache) و الذي يعني في الألمانية موضوع النقاش. يحيلنا قبل كل شيء إلى أن الشغل الشاغل للفينومينولوجيا لن يكون بالضرورة الأشياء المادية الحاضرة في الطبيعة (Dinge) بل كل ما فيها من أشياء، مادية، صورية وثقافية لحظة تناولنا لها من حيث هي موضوعات للتحليل.

المنهج الفينومينولوجي: *La méthode phénoménologique*

لو كان نظام الأشياء المتميزة بالتحليل لا يزال قائما على الغموض (سنزيح هذا الغموض بمجرد أن نتعرض لتحليل القصدية) فإن منهج النفاذ إلى هذه "الأشياء نفسها" لا يطرح أي مشكل، إذ يشير هوسرل بوضوح منذ 1900 في "مقدمات للمنطق الخالص" وهي نوع من المقدمة المطولة للأبحاث المنطقية، إلى

دروب الفكر التي يتبناها حتى يتمكن من فهم الظاهرة في ظاهريتها الخالصة *Phénoménalité pure*. لكي تلج الفينومينولوجيا إلى الظواهر نفسها وإلى دلالتها، فإنه ينبغي عليها قبل كل شيء رفع العوائق النظرية التي تسدّ الطريق في وجهها، وبالتالي فإن وضعها (الفينومينولوجيا) الابتدائي يتمثل في رفع كل الأفكار المسبقة والأحكام-المسبقة النظرية فيما يتعلق بالموضوعات التي ستشتغل عليها.

الأمر إذا متعلق بإبعاد، في مرحلة أولى، التأويلات التقليدية، المنتمية إلى الحس المشترك أو إلى المذاهب الفلسفية التاريخية. لأن العلم والفلسفة، من هذا المنظور، لا يمتلكان أي امتياز بالنظر إلى الآراء السائدة. وبذلك تولد الفينومينولوجيا من رحم رفض الأنساق الموروثة عن القرن XIX (المثالية الألمانية والوضعية)، فهي تريد، أن تؤسس، انطلاقاً من المنابع المحضة للتجربة *L'expérience*، طريقة جديدة لفهم العالم، ليشكل "غياب الافتراضات" *L'absence des prépositions* العلامة الأولى للمنهج الفينومينولوجي. يشير هذا الغياب إلى أنه لا يمكن التفكير في أي شيء ما لم يكن موضع حدس أصلي، من دون استدعاء لأية إسقاطات تأويلية، إنه الدافع الذي من أجله، قرر المنهج الفينومينولوجي التخلي الضروري عن معرفة جاهزة تفهم ما يوجد في الشيء مسبقاً كي يتموضع في الوضع الموقف *attitude descriptive* لـ "المرّة الأولى".

لا يعترض المنهج الفينومينولوجي على صلاحية ولا على سلطان المعارف الجاهزة، وإنما يشك ببساطة في قدرتها على حل بعض المشكلات الفلسفية التي، في نهاية القرن XIX كانت ما تزال موضوع جدال محض. غير أن الأمر لا يتعلق، بالإبعاد الساذج للمعارف الموروثة عن الماضي الذي يحجب عنا الولوج إلى "الأشياء نفسها" وإنما بالموافقة على تدمير، وبشدة مماثلة، الموقف النظري الذي عادة ما يلازمها. مشروطاً وصف الظواهر كما تنعطي يعلن هوسرل أن الفينومينولوجي *Le phénoménologue*، لا يثبت أي شيء متعلق بالوجود الفعلي للموضوعات التي يتم التواصل معها في تجليها الظاهراتي. إذ أن العمل الفينومينولوجي ينحصر في مرحلة أولى عند جمع المعطيات الظاهراتية من دون التساؤل عما إن كانت هذه الأخيرة تحيل من جهة أخرى إلى مرجعية واقعية أم لا. ومن هنا يبحث هوسرل بطبيعة الحال عن تجنب صراع النزعة المثالية

والنزعة الواقعية الذي، برغم ميلاده في القرن XVIII، هزّ عصره أيضا. وبالقياس إلى سؤال وجود أو عدم وجود الموضوعات المتجلية بوصفها ظواهر للوعي، فإن التحليل الفينومينولوجي يسعى إلى "الحياد" Neutre، إنه ما يسميه المعلقون على هوسرل بـ"حياده الميتافيزيقي" Neutralité métaphysique، وعلى حد قول الفيلسوف الألماني الفينومينولوجيا لا "تتضمن أدنى إثبات عن الوجود الواقعي وبالتالي، أي إثبات ميتافيزيقي أو نفسي"⁴ بالتالي، وحسب رأيه، فإن أطروحة وجود أو لا-وجود العالم تبعد عن الاستفهام "الميتافيزيقي" حتى من دون أن تكون هذه الصفة منفية. فأن تكون هذه الأطروحة "حيادا ميتافيزيقيا" يعني، بطريقة سلبية، بأن الفينومينولوجيا تعلق دفعة واحدة السؤال التقليدي حول دلائل وجود العالم، وحتى حول ضرورة المطالبة بها، الأمر الذي يعني بصورة وضعية Positive بأن العالم كما يبدو في تجليه، لا كمشكل مطروح للحل، وإنما كتجربة للوصف، وبهذا المعنى فإنه يمكن القول بأن هوسرل "وضعاني" Positiviste⁵ من حيث أنه يتمسك بوصف كل الأحداث كما هي ماثلة، فلا شيء سوى التجربة، بل التجربة هي الأشياء كلها. ولكن كيف يتم وصف حقل التجربة هذا في تنوعه و تعقداته؟ وإذا كانت الفينومينولوجيا تسعى حقيقة لأن تكون "علما بالظواهرات" Science des phénomènes وتتضمن، بالتالي، طريقة جديدة في فهم التجربة التي لا تضطرّ لاستدعاء أية نظرية تقليدية علمية كانت أو فلسفية، ألن تسلّم حينها بأية فكرة قبلية للمنهج الوصفي؟ ألا يوجد، من هنا، فهما-قبليا Pré-compréhension مجحفا في حق التجربة المقصودة في انتقاء المنهج الذي تم اختياره لإعادة الاعتبار له ؟

يتعهد هوسرل، وهو واع بقيمة اختيار المنهج المسلّم بقيادته إلى معرفة الظواهر، بتحديد طبيعة المنهج الوصفي والغاية منه، إذ يرتكز هذا الأخير، قبل كل شيء، وابتداء من الظاهرة التي تمنعني لنا أولا على: "الحدس" L'intuition. والحالة هذه، فإن الحدس مثبت قبل كل شيء في معيش الوعي الذي يمثله، وبهذا تكون الفينومينولوجيا منذ اللحظة الأولى "علم-نفس وصفي" Psychologie descriptive في نطاق بحثها عن وصف الموضوعات المتنوعة التي تمنعني حدسيا في صورة معيشات الوعي، وبصورة مختلفة، فالشيء نفسه في الفينومينولوجيا لن يكون سوى معيش الوعي Le vécu de la conscience الذي يكون شيء ما

داخله Dans وعبره Par بما هو موضوع مقصود Visé، وبالتالي مائل Présent، وعليه، فبفضل المكانة التي تمنحها الفينومينولوجيا لمثول الوعي، إنها تخدم ذاتها قبل كل شيء، بتوضيحها للموضوعات المطروحة للوصف، عبر أداة "حدس العطاء عينه" L'intuition donatrice en personne، وهذا الأخير هو نفسه، كما يقول هوسرل في المجلد الأول من: أفكار رئيسية لأجل الفينومينولوجيا، "مبدأ مبادئ"⁶ Le principe des principes الفينومينولوجيا.

حدس العطاء عينه، أساس كل وصف فينومينولوجي، يرتكز على العطاء الظاهراتي، البسيط والمباشر للموضوع المقصود، الذي لا يستدعي أية وساطة حسية أو عقلية. إنه (أي حدس العطاء عينه) عادة ما ينتهي إلى الانطباعات الحسية التي تعطي لحدس الوعي موضوعاته (الكيفيات، الجواهر، العلاقات... إلخ) ولكن ليس هذا فحسب، بل كما سنرى، إذ يوجد بالنسبة لهوسرل إمكانا مستمرا لحدس لاجسي، إما بالنظر إلى وجود "الحدس المقولي" Intuition catégoriale (حدس المقولات الكلية التي تنظم الخطاب والفكر: الوجود، الوحدة، العلاقة... إلخ) ولكن هناك أيضا "حدس ماهوي" Intuition eidétique (إيدوس Eidos تعني: صورة أو جوهر بالإغريقية)، أي حدس الجواهر الكلية Générique: أحمر، حصان، إنسان... إلخ ولكن حتى في حالة عطاء المقولة الكلية أو الجوهر الكلي، يتضح الحدس مع ذلك على الدوام مباشرة وعينيا.

قد تكون هذه الفكرة الأكثر أهمية هنا، لكي يشير الحدس "عينيا" (en personne (leibhaft) حرفيا "لحما وعظما") إلى ما يجعل الموضوع هو هذا الموضوع، لا موضوعا آخر، ينعطي بعينه (أي الحدس) بصورة مباشرة جدا، من دون وساطة أي ممثل Représentant، وليس هذا سوى من منطلق عطاء الحدس عينه، إذ تكون لاحقا هناك إمكانية لنماذج أخرى للعطاء. هذه النماذج التي لا تمثل أبدا الموضوع كما ينعطي مباشرة، وإنما بصورة غير مباشرة (تحديدا من منطلق حدس العطاء الذي تغيره [نماذج العطاء] بطرق متعددة) يسميها هوسرل بـ "إسحضارات" (Präsentifikationen (Vergegenwärtigugen) بما أنها تجعل حاضرا ما لم يكن حاضرا بعد، وتلك هي الأنماط الحدسية المتفرعة. ولكن من أجل الأكثر أهمية من منظور المعرفة، الذكرى، التخيل والدلالة الفارغة

البيسطة (الفعل البسيط للدلالة على موضوع من دون إنتاج أي حدس مائل، ذكرى أو صورة).

لدينا أربعة أنماط أساسية للعطاء، هنا، يؤدي أحدها إلى الآخر بطريقة مفصلية: العطاء الأول هو عطاء الحدس عينه، العطاءات الاسحضارية Donations présentifiantes التي تجعل الموضوع مائلا انطلاقا من شيء آخر (الذكرى والتخيل) والعطاء الدلالي Donation signitive الذي يمثل الدلالة، الخالصة والبسيطة للموضوع، الفارغة من كل مضمون حدسي. انطلاقا من هذه الأنماط الأربعة للعطاء، بإمكان الوصف الفينومينولوجي أن يتقدم مستهدفا الكشف لا عما يكون الموضوع في ذاته، وإنما ما يكون في عطائه الظاهراتي.

مرتابا، بخصوص التمييز الكانطي لـ"الظاهرة" Phénomène عن "الشيء في ذاته" Chose en soi يعتبر هوسرل أن ظاهرة كل الأشياء . فيما يتعلق بالعالم الطبيعي، وسائر العوالم الصورية والثقافية . تحمل معها جوهرها، بحيث إنه لا يرتبط بشيء من التسليم الإلغازي لـ"الشيء في ذاته" الذي طالما تواجد خلف الظاهرة ليمنحها ثقلا أنطولوجيا معينة. فالوجود ينحل في تجليه، إذ ما كان تجلي شيء ما كاف لوضع علاقة الوعي بهذا الشيء. إذ يتضمن، التحييد الميتافيزيقي Neutralisation métaphysique مع ذلك، أنه ينبغي البحث عن الجوهر في تجليه الظاهراتي عينه، بحيث أن الوجود يتواصل مع تجليه. فما هو موضوع، ما يتقومة بما هو كذلك، ما يسميه هوسرل بـ "هويته" Ipséité (sebtheit) لا يمكن أن يكون سوى منكشفا سوى عبر مختلف الصور التي ينعطي بها الوعي. مستذكرا العبارة الشهيرة لباركلي Berkeley يثبت هوسرل هاهنا أن "الوجود، هو وجود مدرك" (esse est percipi). غير أنه لا يعني، رغم ذلك، بأن معيشات الوعي التي يعطي منها الحدس الموضوع Objectité عينه "الوقائع الطبيعية" بالنظر إلى الحالات الذهنية لذات سيكولوجية خاصة.

يتعهد هوسرل في "الأبحاث المنطقية" بالتوضيح أن المعيشات يتم إدراكها فينومينولوجيا بما هي طبائع عامة للأفعال أو كـ "ماهيات" Essences المعيشات والتي ليست لها أية علاقة، من منظور حدسيها الخالصة، مع النفسانية الطبيعية Psychisme naturel. فلو أصر نظام الغموض على معيش

الوعي مطولا في "الأبحاث المنطقية" لكان من بين أهداف المنعطف الترانساندانتالي المثالي لفكر هوسرل بعد 1907 هو تجنب كل فهم نفسي وإمبريقي وللعطاء الحدسي، أي أنه، حوّل ميدان هذا الوعي اللامنفسن *Dépsychologisée* والمحدد حاليا كحقل للحدس المحض، فإن الوصف الفينومينولوجي يحضّ على أنماط عطاء الموضوعات كحرصه على المعطيات عينها، التي لا تسير الواحدة من دون الأخرى، ويشير هذا التلازم عينه منذئذ إلى أنه لن يكون هناك أي عطاء لشيء ما من دون شيء معطى والعكس بالعكس.

وكما نرى فالعطاء الحدسي للإدراك الحسي والمباشر يؤسس مرحلة مهمة لتشكيل التجربة بما أنها (أي التجربة) هي التي تعطيه، بطريقة ما، الإذن بالانطلاق، وهو الدافع الذي كثيرا ما أخذ به هوسرل كموضوع لدراسة الإدراك الحسي لا لأنه يثري الشكل الأكثر بساطة واللامتميزّ بالعطاء فحسب، وإنما لأنه يشكل، بالقدر نفسه، أساس كل عطاء حدسي (حتى الحدس المقولي والماهوي اللذان، بطريقة ما، يتأسسان عليه).

في المقابل، وإن كان حدس الإدراك هو الأول، ولكنه ليس مطلقا أو مكتملا، وفي الواقع فالإدراك الخارجي يتميز بالنسبة لهوسرل بالعطاء اللامكتمل والإجمالية، فالأشياء المدركة، كما تبدو لنا، ليست مطلقة ومكتملة، وإنما تحت ظلال (*abschattungen*) وصفحات (*stein*)، خصوصية ومتغيرة باستمرار. هذا التحديد للإدراك الخارجي ذو عطاء متقطع، غير أنه يستمر هنا في عدم الإشارة إلى أي قصور طبيعي للذات المدركة، ولكنه يؤسس بالأحرى قانون الإدراك عينه⁷ على اختلاف المعيشات الداخلية المعطاة من دون إجمالية في تجاوز كلي (الفكرة أو العاطفة لا تنعطيان في صفحة ثم في أخرى وإنما ككل لا-منفصل) تنكشف الموضوعات الخارجية بالتقدم عبر تجمعات متتالية فترفع وحدة الموضوع المدرك عن السيرة العامة لـ"الإدراك" التي تعقل على الدوام، فيما وراء الأجزاء المتحركة الماثلة في خصوصيتها، كلية صيروراتية *Totalité en devenir* بمعنى ما، في كل إدراك خارجي، فإن قصدية الإدراك تتجاوز على الدوام ما هو مدرك فعليا، بما أننا ندرك كلا إدراكيا، هنا حيث لا يعطى لنا من منظور حدسي

واقعي، سوى كتنمة للظلال المتلازمة ولكن المحدودة. إن فينومينولوجيا الإدراك تلتزم إذا بعرض الدور الأساسي الذي يلعبه الوعي القصدى في كل حدس عطائي.

نظرية القصدية: *La théorie de l'intentionnalité*

يستدعي هوسرل أطروحة أستاذه، عالم النفس النمساوي، فرانتس برانتانو Franz Brentano، ليصف الوعي بالقصدى، من خلال "علم النفس من منظور إمبيريقي" 1874 *La psychologie d'un point de vue empirique*. إذ يميز برانتانو الظواهر النفسانية عن غيرها من الفيزيائية منها، إنه يلوح، في الواقع، إلى أن الأولى تختلف عن الثانية منها، من خلال عدة مميزات، بمجرد أن ترتبط جوهريا، بموضوع ليس هي (غيرها) وبما هي تحتوي هذا الارتباط فيها بصورة مباشرة.

لنرجع بمصطلح القصدية إلى الفلسفة السكولائية Scholastique مقابل تعديل معناه ورفع دلالاته العملية، على وجه الخصوص، عن "القصد في فعل شيء ما" إذ يحددها برانتانو بما هي مقدرة الظاهرة النفسانية على توجيه ذاتها نحو أي موضوع كان: "كل ظاهرة نفسانية تتميز بما يسميه سكولائيو العصر الوسيط باللاوجود القصدى *L'inexistence intentionnelle* (أو الذهني أيضا) لموضوع ما، وما يمكن أن نسميه، ولو ببعض العبارات الغامضة، بـ العلاقة بمحتوى ما، التوجه نحو موضوع ما (لا يجب الإصغاء لواقع ما باسمها) أو موضوع محايت⁸". هذه العبارة المعروفة أحيانا بسوء فهم تفرض بعض التوضيحات الفورية، وقبل كل شيء اللا-وجود القصدى الذي يتحدث عنه برانتانو هنا لا يعني بأن الموضوع المقصود من طرف الوعي غير موجود، بل هو موجود-في *in-existere* الوعي ذاته، حيث تتعلق ملاحظته باحتواء هذا الموضوع بما هو "موضوع ذهني"، ثم لا ينبغي حصريا تفكير هذا الموضوع القصدى كموضوع منتم إلى العالم الخارجي، إلى "الواقع" *Réalité*. بديهية رياضية *Axiome mathématique* وجود خيالي (سنطور *centaure*) أو حتى مفهوم صوري محض (كمفهوم الهوية مثلا) التي بإمكانها أن تؤسس موضوعات قصدية بما هي كذلك، وإجمالا فإن القصدية تحيل بالنسبة لبرانتانو إلى الملكة النفسية لتعالى الوعي، بما هي حركة نحو شيء آخر من دون ردّ هذا (الشيء) الآخر إلى عالم بسيط.

التحليل الهوسرلي للقصدية، والذي طوّره (أي هوسرل نفسه) لأول مرة بطريقة منهجية في خامس "الأبحاث المنطقية" ينطلق من هذه النظرية البرانتانية، ولكنه يغيرها جوهريا على الأقل في نقطتين:

1. فيما يتعلق بالموضوع القصدي قبل كل شيء، فإن هوسرل يرفض النظام الذهني الذي منحه إياه برانتانو، ويمكن القول أيضا بأن نزع الطابع الذهني *La démoralisation* الكلي للقصدية يؤسس العمل العظيم للتأويل الهوسرلي. هذا التعديل مشهود ولاسيما في 1894 حينما تجادل هوسرل مع أحد تلامذة برانتانو وهو كازيمير تواردوفسكي Kasimir Twardowski الذي يدعم، في مؤلفه "عن نظرية محتوى وموضع التمثل" حتى وإن أدخل بعض التعديلات، أطروحة تضمن الموضوع القصدي.

يقوم دهاء تواردوفسكي على تقسيم الموضوع القصدي إلى قسمين: إلى موضوع داخلي من جهة، الـ"محتوى" (inhalt) Contenu وإلى "موضوع" بالمعنى القوي للمصطلح (gegenstand) بالنظر إلى الموضوع الواقعي. فكل فعل قصدي يمرّ إذا بالموضوع الأول، المحتوى الداخلي للوعي، ليرتبط بعدها بالموضوع الثاني، موضوع التمثل بحصر المعنى، فقد كان يعتقد أنه بإمكانه حل المشكل اللصيق بالفلسفة، على الأقل منذ بولتزانو Bolzano وهو مشكل "التمثلات بدون موضوعات" Les représentations sans objet بالنظر إلى التمثلات التي تقصد محتوى قصديا لا يتواصل معه أي موضوع متواجد فيه (مثلا كالموضوعات الميثولوجية: بيغاز Pégase، غريفون Griffon، زوس Zeus... إلخ) و أثناء ذلك فقد تمكن تواردوفسكي من الحصول على تمثلات بلا موضوعات، فهناك محتويات وعي لا تحيل إلى أي موضوع، ومن دون الولوج في تفاصيل هذه التحليلات يمكن هاهنا أن نرى بوضوح بأن تواردوفسكي قد قسّم الوعي القصدي بما أن فعل تمثل الوعي يقصد من جهة المحتوى المدلول Contenu signifié (المدلل عليه) في الوعي، ثم من جهة أخرى الموضوع المتواجد واقعا. ولكن ما هو الموضوع القصدي الحقيقي؟ هل يقصد كل وعي قصدي على الدوام موضوعين: المحتوى الداخلي والموضوع الخارجي، ما عدا الحالة الاستثنائية للتمثلات بدون موضوع، حيث لا يرتبط الوعي القصدي إلا بمحتوى الوعي؟

لا يعتقد هوسرل بذلك، ومن هذا التقدير النقدي لنظرية تواردوفسكي ستنبثق نظريته (أي نظرية هوسرل) في القصدية L'intentionnalité فهو يعارض، قبل كل شيء، فكرة التمثل المدرك كصورة داخلية محتواة في الوعي. وفي الواقع كان تواردوفسكي يجعل من المحتوى القصدى نسخة داخلية لموضوع الوعي المتعالى. والحالة هذه، بالنسبة لهوسرل، لا يكفي القول بأن الموضوع القصدى ليس، واقعياً، محتوى في الوعي بما هو موضوع ذهني، بل إنه لم يعد، أيضاً، في شكل نسخة أو صورة. إن نظرية تواردوفسكي تنتج تقسيماً خاطئاً لعالم الموضوعات، بالتمييز بين محتوى وموضوع التمثل، يقحم الفيلسوف البولوني (أي تواردوفسكي) وساطة بين فعل الوعي وما يقصده، والأمر هاهنا بالنسبة لهوسرل يتعلق بتمييز خطير وعبثي. خطير من جهة أنه يجبرنا على تفكير المحتوى بما هو نسخة داخلية، وعبثي من جهة أنني حينما أصف الطريقة التي أرتبط بها فعلياً بموضوع قصدى ما فأنا لا أدرك أبداً المحتوى الداخلى لوعي Ma conscience الذي يفترض أنه يوجيني نحو هذا الموضوع. فأنا أدرك الشجرة الموجودة في الساحة لا المعيش الداخلى أو تمثلي الذهني لهذه الشجرة. ومع نظرية تواردوفسكي، كما ينوّه هوسرل في خامس "الأبحاث المنطقية": "يجب من الآن فصاعداً أن تلتحم حقيقتين، في الوقت الذي تمثّل فيه واحدة فقط".

يسمح لنا نقد تروادوفسكي برؤية، من هذا العمل، المنهج الوصفي نفسه للفينومينولوجيا، وإذا كان هوسرل يرفض التقسيم الذي أنجزه تواردوفسكي، لعالم الموضوعات، فإنما ذلك لأسباب جوهرية تحيل إلى العطاء الحدسي نفسه. ففي القصد، المليء حدسياً بشيء ما، إنني لا أدرك شيئاً في الحقيقة من تقسيم الوعي إلى محتوى وموضوع، وبالتالي فإن حدس العطاء والذي يبرّر لوحده كل معرفة، يجبرني على مجاوزة هذا الفهم من دون مكافئ حدس. وإذا كان هناك، في الختام، بالنسبة لهوسرل موضوعاً قصدياً، فلن يكون إلا بسيطاً، لا متضمناً بصورة واقعية في الوعي على شكل نسخة أو صورة. إذا فما هو نظام الموضوع القصدى؟ تتطلب الإجابة هاهنا لحظتين: في اللحظة الأولى، سيعتبر هوسرل أن سؤال النظام الأنطولوجي للموضوع القصدى، على العموم، لاغ وعبثي، إذ إن العطاء الحدسي للموضوعات القصدية يعطينا من طرحها (أي الموضوعات القصدية). لا يهمننا "والحالة هذه، ما إذا كان الموضوع

موجودا، سواء بصورة وهمية أم عبثية" حينما نثبت، في الواقع، يقول هوسرل "أن الموضوع قصدي ببساطة"⁹، فهذا لا يعني، بطبيعة الحال، بأنه موجود في المقصدية La visée، وإنما يوجد بما هو مقصود. إن وجوده (أي الموضوع القصدي)، إن أمكننا الحديث عن الوجود Existence هاهنا، لا يتعلق بواقع معيش ولا بواقع شيء ما، بل بواقع ما هو مقصود، الكثافة اللاواقعية نفسها لشيء مقصود. لا مفرّ إذا من منظور الحدس نفسه، من عدم تقبل ما ينعطي كما ينعطي Ce qui se donne tel qu'il se donne إنها الحجة التي يمكن لهوسرل التقدم، باسمها، في "الأبحاث المنطقية" ف"أنا لا أتمثل جوبيتر Jupiter مخالفا لبسمارك Bismark ولا برج بابل La tour de Babel مخالفا لكاتدرائية كولون La cathédrale de Cologne..."¹⁰ فأن يكون الموضوع موجودا أو غير موجود، واقعا أم خياليا"، فذلك مما لا يهمنا كثيرا، ذلك أن المقصد القصدي La visée intentionnelle يقصده بما هو كذلك، لا كشيء مختلف عنه يحتاج باستمرار لهذا الآخر لإثبات ذاته، ووجود هذه الموضوعات من عدم وجودها أمر يتوقف على البداهة الفينومينولوجية L'évidence phénoménologique.

إن هذه الموضوعات تنعطي لي كذا أو كذا. وهذه الميزة الفينومينولوجية للوجود-المعطي (الانعطاء) être donné، بما هو شيء ما هي التي ترد هاهنا، وفي كلتا الحالتين أنا على صلة بموضوع قصدي واحد ووحيد ينعطي كما ينجلي.

أما في اللحظة الثانية، سيعتبر هوسرل بأن المحتوى La teneur الوجودي للموضوع القصدي ليس محتوى لموضوع واقعي بالمعنى القوي، المتجدد إلى واقع طبيعي وإنما قوامه في "دلالته" المثالية البسيطة. إن تحديد الموضوع القصدي بما هو دلالة يسمح بإعطاء محتوى معقول لأي موضوع، مع اجتناب فهم المحتوى كوجود أو واقع. وبوصف سؤال وجود الموضوع قد تمّ تعليقه مسبقا بعدما لم يبق من هذه الحركة سوى تجليه (أي تجلي الموضوع) فالذي يبقى، ملائما بالنسبة لهوسرل، فينومينولوجيا، هو سؤال أنماط عطاء ودلالة هذا الموضوع. إن لاواقعية الموضوع القصدي، بالتالي، قد أعيد تأويلها بما هي مثالية الدلالة، بالنظر إليها بما هي عطاء أدنى لشيء ما، (Gegenstand überhaupt)، يصنع المعنى عموما.

2. أما الفرق الثاني الذي أحدثه هوسرل على تجديده للفهم البرانتاني للقصديية يتعلق بالمعطيات الحسية للوعي، فإذا كان برانتانو يعتبر المعطيات الحسية، أي الإحساسات، أو أيضا المشاعر والغرائز والانفعالات الداخلية . يجمع هوسرل في كتاب الأفكار (Ideen I) جملة هذه المعطيات تحت عنوان المادة المحسوسة أو الهيولي (hylé) الخاصة بالوعي . كظواهر فيزيائية بسيطة ليدمجها من دون البقاء في ميدان الوعي الفينومينولوجي الخالص.

إن المعطيات الأولية للوعي تبدأ إذا مع الإحساسات و التأثيرات التي تتم معايشتها من طرف الوعي، كالأفعال القصديية نفسها، إلا أن هوسرل لا يعطيها، في مقابل ذلك، الطابع الذي يميز القصديية. فليس كل ما يتواجد في الوعي، منذئذ، قصدي بالضرورة لمجرد ما يجعله واع. من هذا المنظور، فإن المعطيات الحسية تمثل المحتويات الداخلية للوعي، التي لا تملك الأولوية القصديية. إنها معاشة، بما هي، مباشرة، معطيات محسوسة لا تحيل إلى أي موضوع فيها وعبرها، وبصورة أخرى فبالنسبة لهوسرل، إنها ليست (أي المعطيات الحسية) أفعالا قصديية.

ولكن هذا لا يعني، مع ذلك، بأن المعطيات الحسية غير ذات علاقة مع الوعي القصدي، ففي الواقع، ليكون شيء ما مدركا واقعيا، ينبغي أن تحيي الأفعال القصديية وتؤول معطياتها الحسية لتعطيها المرجعية إلى الموضوع كما هو. ومثل هذا الإحياء تأويل المعيشات من طرف الأفعال التي تعطيها المرجعية القصديية، يسميه هوسرل بـ"الإحاطة"¹¹ (Appréhension (auffassung) و كل النسق المنبثق من الوعي القصدي يتصف لاحقا لما هو علاقة منتظمة ما بين "محتويات الإحاطة" (Contenus d'appréhension) (المعطيات الحسية) و"الإحاطة" (النشاط القصدي)L'activité intentionnelle. وبدون هذه الأفعال القصديية التي تدركها (تدرك المعطيات الحسية)، ينوه هوسرل، فإن الوعي الحسي، المحض تمثلي والقائم بذاته Intransitive سيتمائل مع مزيج من الانطباعات حيث لا يرتبط بأي موضوع مماثل. كل شيء يحدث كما لو أن الوعي يستقبل، و قبل كل شيء، معطيات حسية لا تحيل إلى أي مرجع غيري Objectal، ثم و بفضل تدخل مختلف الأفعال القصديية يزود الوعي، بهذه المعطيات الخالصة، المرجعية القصديية لموضوع ما.

ها نحن نواجه فهم القصدية بثلاثة مصطلحات، لدينا، من جهة الوعي محتويين واقعيين: فعل قصدي ومعطى حسي لا-قصدي، ومن جهة مقصود الوعي وما ليس بمحتوى واقعي فيه. الموضوع القصدي، فمنذ 1901، وهوسرل يتحدث عن الموضوع القصدي لـ"المحتوى اللاواقعي"، ثم انطلاقاً من "فكرة الفينومينولوجيا" L'idée de la phénoménologie عن "المحاثة القصدية" Immanence intentionnelle (الموضوع ليس موجوداً في الوعي كمحتوى واقعي، وإنما كمحتوى قصدي). ولأن تجاوز مصطلح علم النفس وصداه الشائع، سيعوّض هوسرل في "فكرة الفينومينولوجيا" مصطلح الفعل والموضوع بمصطلحات "النويز" Noèse و"النويم" Noème (نويزيس noésis في الإغريقية يعني الفكر). ولكن المخطط العام للوعي القصدي لن يتغير جذرياً والموضوع القصدي سيبقى "لا واقعيًا" دوماً بالنسبة للوعي، بالمعنى الذي لن يؤسس فيه محتوى داخلياً. غير أن هذه اللاواقعية لا تمنعه من أن يكون معطى حدسياً داخلياً. على العكس فالموضوع القصدي يتمظهر Se phénoménalise كعيشات موجهة إلى تقوّم المعنى فيه. إن النويزات Noéses القصدية تنشّط المعطيات الحسية (والمسماة حالياً بهيولي Hylé الحساسة الداخلية للوعي) لترتبط بنويمات Noèmes تمتلك كلها محتوى دلالة خاصة، وبهذا فكل موضوع قصدي هو ملازمة الوعي الذي يقصده (يقصد الموضوع القصدي).

ولكن أليس العطاء لدى النزعة السيكلوجية، أي بالنسبة لهذا الفهم القائم على إثبات أن الإشكالات المنطقية والفلسفية يمكن دراستها وتوضيحها باسم علم النفس، الذي يفهم الموضوعات المنطقية والرياضية كتمثيلات بسيطة أو حالات للوعي؟ بالتالي فكل إشكال منطقي ليس سوى ترجمة، من هذا المنظور، لظاهرة نفسية تنتجها، والذي تكون دراسته ممكنة عبر السيكلوجيا بتفسير وظيفته. فليس لمحتويات التمثل مذكاً أي استقلالية واقعية ولا حتى وظيفية، وإنما هي مجرد مُنتجات الأفعال النفسية التي تقصدها. يوضّح هوسرل هذه النقطة منذ 1900 في "مقدمات إلى المنطق الخالص"¹² Prolégomènes à la logique pure مبيناً سبب عدم احتواء نظرية الوعي القصدي على فهم نفساني للوعي، وتسمح بالتخلص منه نهائياً. في الواقع إن الموضوعات الصورية بالنسبة لهوسرل تكتسب استقلالاً وظيفياً واقعياً، هذا إن لم يكن أنطولوجياً،

وبالتالي، لا يمكن ردها Réduire إلى ظواهر طبيعية نفسية بسيطة. فنظرية القصدية La théorie de l'intentionnalité تبرهن بوضوح هذا الاستقلال الواقعي للموضوعات القصدية التي ليست على الإطلاق محتويات للوعي، والأكثر من هذا فإن تحديد الموضوع القصد كدلالة لا-واقعية في "الأبحاث المنطقية" يحقق لها المسافة ما بين الحدث النفسي ومحتوى المعنى.

في المقابل، إذا كان نظام الموضوع القصد يبدو ثابتا بشكل نهائي في "الأبحاث المنطقية". علما أن نصوص هوسرل الأخرى لن ترجع إليه. فإن التساؤل يبقى بصدد ما يتقوم موضوعا حقيقيا، وعلى العموم، إلى أية نظرية للحقيقة يقودنا الفهم الهوسرلي للقصدية. في الواقع إن تمييز تواردوفسكي بين المحتوى والموضوع ذا فضل كبير في تقديم نظرية بسيطة للحقيقة، بالمعنى الذي يكفي معه المرور من المحتوى الداخلي إلى الموضوع الخارجي لكي تنطرح وتستقر حقيقة فرضية في حكم إثباتي. برفضه لهذا التقسيم والاحتفاظ بمواجهة فعل وعي الموضوع القصد كما هو مقصود كـ"محتوى للدلالة" فإنه ينبغي على هوسرل، في المقابل، توضيح كيف أن كل من الخطأ والحقيقة ممكنان، فهل كل ما يقصد من موضوع ما يتقومه مباشرة لموضوع حقيقي؟ ألا توجد مقصودات خاطئة وموضوعات قصدية خاطئة هي نفسها؟ في الواقع إن المشكل لا يطرح على هذه الشاكلة بالنسبة لهوسرل، فحقيقة المقصد القصد لا تتعلق بدلائل وجود هذا الموضوع، وكما نعرف، فإن هذه الدلائل مرفوضة بالنسبة للفينومينولوجيا، بناء على مبدأ التعليق الأنطولوجي Suspension ontologique ليطرح هوسرل أيضا نظرية محض فينومينولوجية للحقيقة. فالمقصد حقيقي أثناء فعل القصد (الرؤية)، الذي لا يرتكز في البداية سوى على قصد الدلالة، فارغا من كل معطى حدسي، (إن لم تكن الحدسية L'intuitivité محصورة في الدال المحض نفسه) الذي يمتزج بعطاء حدسي فعال للموضوع المقصود. إن حدس العطاء يأتي بذلك على ملاء Rempirir المقصود الفارغ غير المرتبط مسبقا بالموضوع سوى بدلالة بسيطة ومحضة. ففي الحاضر تأتي قصدية من النمط الحدسي على مطابقة قصدية من النمط الدلالي المحض (أي الذي يتعلق بالدلالة البسيطة للموضوع) وحقيقة القصد تنتج بالضبط من هذا اللقاء، فيما بين الدلالي والحدسي. إنها العملية التي يسميها هوسرل في "الأبحاث المنطقية"

بـ"المطابقة" Recouvrement التي قوامها الانصهار التطابقي لقصد فارغ وحده يملؤه. لا نحتاج للقول بأن هذا التطابق قلما يكون كلياً، وبأنه بالنسبة لهوسرل هناك على الدوام فائضا في القصد وفي الحدس وهذا الفائض Surplus في القصد يعني، بالقدر نفسه، بأن العطاء الحدسي المطلق يتمثل مثال التجربة Expérience والعقل أكثر من معطى واقعي للتجربة القصدية.

يوجد طبعا عدد قليل من الحالات حيث يستقبل المقصود القصدى بديهية بكاملها، كما ليس هناك أي مجال للاستفهام مسبقا عن معناها، مثلا كحالة بدهية المبادئ الأولى للمنطق والرياضيات، غير أن القاعدة العامة هي اللامطابقة L'inadéquation ما بين المقصود والمعطى.

ليس هذا الأخير على مضمض: فهو الذي يسمح، على العكس، للعقل بعدم الاكتفاء بالبدهيات الجزئية، ولكنه يسمح بالمطالبة بما يسميه هوسرل بالبدهية المطلقة والقطعية Apodictique (الضرورية كلية) ليحتل الموقع، بذلك، فهم غائي Télologique للعقل، حيث أن العقلانية، على الدوام، مقدرة بمقدار الهدف النهائي (الغائي) Télos للحقيقة المطلقة، أي بالنسبة لهوسرل، بالعطاء الحدسي المطلق والكامل. "القبلي التلازمي"¹³ L'a priori corrélationnel بين أفعال الوعي (ما يسميه هوسرل في 1913 في المجلد الأول من كتاب الأفكار Ideen I بـ"النويزات" و الموضوعات القصدية "النويمات") تؤسس إذا أعظم اكتشاف للفكر الهوسرلي. إنه هو (أي التلازمي القبلي) الذي يشكل المحور الرئيسي لفلسفته المتعلقة بكشف كل الكيفيات العمودية (الزمانية، التكوينية والتاريخية) والأفقية (العطاء-المشترك، المشاركة في الماهية مع موضوعات أخرى من نفس الطبيعة...إلخ) من هذه العلاقات الأبدية بين قطب الذات وقطب الموضوع، حتى وإن أمكن أن تكون هذه الأنماط مختلفة للغاية وغير محدودة بالعلاقة المعرفية البسيطة. إن دراسة الانفعالية Affectivité والجسدانية Corporéité تؤكد، لدى هوسرل، في الواقع كلية التلازم القصدى، فنحن نتساءل مسبقا عما يمكن أن تكون "الأشياء نفسها" وهو ما على الفينومينولوجيا دراسته، إذ إننا نملك بفضل نظرية القصدية إجابة أولية: كل ما يحتمل الانعطاء للوعي كظاهرة محضة، بالنظر إلى المعيشات الالفاعلة (معطيات حسية

هيولوية (Hylétiques) والفاعلة (أفعال وعمليات نوتيكية وموضوعات قصدية
(نويمات).

¹ Bruce BEGOUT, *Edmund Husserl in: introduction à la phénoménologie, sous la direction de Philippe CABESTAN, ellipses, Paris, 2003, PP 11-35.*

² أستاذ بشعبة الفلسفة.

³ إيهوسرل: أبحاث منطقية (أم باختصار): الترجمة الفرنسية ل: هيلبي، أبل. كالكل، ر. شيرار، المجلد 1: مقدمات إلى المنطق الخالص، المجلد 1/II أبحاث من أجل الفينومينولوجيا ونظرية المعرفة (الأبحاث I و II)، المجلد 2/II (الأبحاث III، IV و V) والمجلد III: عناصر من أجل إيضاح المعرفة فينومينولوجيا.

⁴ الأبحاث المنطقية، المقدمة، المجلد 1/II، ص 23.

⁵ أفكار رئيسية من أجل فينومينولوجيا، و فلسفة فينومينولوجية خالصة، المجلد I (المسمى اختصاراً بالأفكار I)، ترجمة: بول ريكور، 1950، باريس، غالبار، ص 69.

⁶ الأفكار I، ص 78.

⁷ في المجلد الأول من: الأفكار يلاحظ هوسرل أن قانون العطاء باسم إجمالية الإدراك الخارجي للأشياء المكانية يصدق حتى على الإله (Dieu).

⁸ ف. براتانو، علم النفس من منظور إمبيري، الترجمة الفرنسية: م. دي غاندياك، باريس، أوبييه، 1942، ص 115.

⁹ الأبحاث المنطقية، م 1/II، ص 231.

¹⁰ الأبحاث المنطقية، م 1/II، ص 176.

¹¹ الأبحاث المنطقية، المجلد II، ص 189.

¹² و الحق يقال فإنه قد تراجع عن ذلك (mea-culpa) لأنه هو نفسه قد ساند فكرة الفهم النفساني للرياضات في عماله الأول "فلسفة الحساب" 1891 La philosophie de l'arithmétique.

¹³ في 1936، في آخر عمل له، يعتبر هوسرل هذا "القبلي التلازمي" الاكتشاف الأساسي في حياته. أنظر: أزمة العلوم الأوروبية والفينومينولوجيا المتعالية، الترجمة الفرنسية: ج. غارنيل، باريس، غالبار، 1976.